

عطر سلاطين المماليك

الدكتور/ علي السيد علي

كلية التربية بالفيوم - جامعة القاهرة

مضارة

الإسلامية زاخرة بكثير من تراثها المجيد، والوثائق التاريخية أحد أهم عناصر هذا التراث، وقضية فلسطين إحدى أهم القضايا الإسلامية، ونشر الوثائق من أهم ما يخدم هذه القضية العادلة، لأن هذا النشر يقدم شواهد لا تنكر على حقوق العرب والمسلمين في البلاد الفلسطينية ومنها القدس الشريف.

وإذا كان العصر الحديث بما عرف عنه من اتساع دائرة سلطة الحكومة ومسئوليتها عن النهوض بكافة مرافق الدولة، وضمان الإنفاق عليها، وصيانتها؛ فإن الأمر لم يكن كذلك في العصور الوسطى بوجه عام وعصر سلاطين المماليك بوجه خاص. فتلك العصور هي عصور الإيمان الذي تحكم في أحاسيس الناس ومشاعرهم، ورسم لهم الخطوط العريضة لسلوكهم تجاه المجتمع الذي ينتمون إليه ويعيشون وسطه. وفيها انحسر نشاط الحكومات على ما تسمح به حصيلة الضرائب الشرعية من رعاية لأمن البلاد والعباد، وتقديم ما تيسر بعد ذلك من خدمات لرعاية مرافق

البلاد وشئون العباد، وبشكل محدود لا يكفي لكل ما ينشده أفراد المجتمع من رعاية اجتماعية وصحية وثقافية ودينية.

وكان أن عالج المجتمع الإسلامي هذا القصور علاجاً ناجحاً مستمداً من الوازع الديني عند الأفراد، والاستغلال الأمثل لفكرة الإحسان العام التي نادى بها الإسلام. ولم تقتصر الحسنة في هذه الحالة على الزكاة والصدقات المنصوص عليها في أحكام الدين، وإنما تعدت ذلك إلى نطاق الصدقات الاختيارية التي يتبرع بها القادرون من أهل الخير واليسار عن طيب خاطر تقريباً وزلفى لله عز وجل، ووجدت هذه الرغبة في فعل الخير متنفساً لها في نظام الأوقاف، ومن المعروف أن نظام الوقف بدأ منذ الأيام الأولى للإسلام على يد الرسول ﷺ، فقد عُرِفَ عنه أنه عليه الصلوات والسلام قد شجع على إقامة الوقفيات لصالح المسلمين، حيث وقف مدينة الخليل وما حولها على الصحابي الجليل تميم الداري وذريته، ثم تطور نظام الوقف مع تطور وتقدم الدولة الإسلامية بعد عهد الرسول، فأقام المسلمون العديد من الأوقاف طلباً لرضاء الله تعالى في الآخرة، وكذلك إحياءً لذكراهم بالعمل الصالح في الحياة الدنيا، كل حسب قدرته وعلى اختلاف طبقاتهم رجالاً ونساءً.

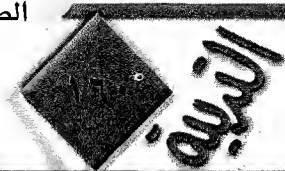
ويكفي فحص ولو سريع لوثائق وقف فلسطين على الحرمين الشريفين لكي يتبين المرء النظرة الشمولية لنظام الوقف الإسلامي، وكيفية اعتباره العالم الإسلامي وحدة واحدة، حيث يخصص دخل وقف ما في بلد ما إلى غاية نبيلة في بلد آخر، وإلى الارتباط العضوي والمصيري بين المقدسات الإسلامية، وإلى حيث يبادر الخيرون إلى وقف الأوقاف من مبان وأراض وغيرها على مختلف الأغراض الخيرية التي تعود على المجتمع بالخير العميم، وإلى حيث شيد الواقفون الكثير من المنشآت لتعليم الأيتام، وتعليم الكبار، والمساجد لإقامة شعائر الدين، والبيوت للصوفية لذكر الله تعالى، والبيمارستانات (المستشفيات) لعلاج المرضى، والأسيلة لتوفير الماء العذب لشرب الناس، والأحواض لشرب الدواب، وغيرها من وجوه البر.

وحرص الواقفون على استمرارية هذه المنشآت في أداء مهامها سواء في حياتهم، أم بعد مماتهم، لذلك فقد أوقفوا عليها الكثير من الأوقاف لينفق من ريعها عليها، وهكذا غدت الأوقاف الدعامة الكبرى لتنمية المجتمع ورعايته وتوفير مختلف الخدمات الاجتماعية والصحية والتعليمية والدينية لأفراده، ولم تكن هذه الرعاية مسئولية الحكومة والحكام بقدر ما كانت مسئولية كل قادر من أفراد المجتمع.

وارتبط كل وقف من هذه الوقفيات بحجة شرعية، توضح أركان ذلك الوقف، والغرض منه، وحجم وكيفية الاستفادة من ريعه، ونوعية المستفيدين من الوقف وعددهم، والموظفين والخدم القائمين على رعاية شئون المنشآت الموقوفة، وغير ذلك من الجوانب التي توضح الإطار العام لنظام الوقف في ذلك العصر. كما أن ازدهار الأوقاف الفلسطينية في العصر المملوكي أدى إلى أن أصبح معظم دور وحوانيت ورباع وقيساريات وخانات وأسواق وحمامات ومعاصر وطواحين فلسطين، ومكاتبها «كتاتيبها»، ومدارسها، وبيوت الصوفية فيها موقوفة، إلى جانب عدد كبير من القرى الفلسطينية والمزارع والبساتين والتي جاء ذكرها في وثائق وقف مدن فلسطين المختلفة.

وإذا كنا اليوم نتحدث عن أوقاف فلسطين على الحرمين الشريفين، مكة المكرمة، والمدينة المنورة، ففي الواقع أن أوقاف فلسطين المملوكية مصدر في غاية الأهمية للتأكيد على عروبة فلسطين بوجه عام، ومدينة بيت المقدس بوجه خاص، كما أنها مصدر لا غنى عنه لدراسة العمارة الإسلامية في فلسطين، بل ويمكن اعتماداً عليها ترميم الآثار الإسلامية وإعادةتها إلى الصورة التي كانت عليها في الماضي، كما يمكن عن طريق هذه الوثائق القيام بدراسة طبوغرافية لكثير من المدن الفلسطينية في العصر المملوكي.

وينبغي أن نشير إلى أن السلطنة المملوكية كانت تضم مصر وبلاد الشام بأقسامها السياسية المعروفة لنا الآن باسم سورية، ولبنان، والأردن، وفلسطين، ثم الحجاز، وأجزاء من آسيا الصغرى، وأنه في موقعة مرج دابق عام ١٥١٧م تم للدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الأول القضاء على دولة سلاطين المماليك، وضم البلدان المشار إليها ضمن أملاكها ومنها فلسطين. وتحتم على السلطنة العثمانية القيام بعمل إحصاءات شاملة لهذه البلاد للوقوف على أحوالها الاقتصادية والسكانية وغيرها، وتدوين هذه المعلومات في العديد من الدفاتر. ويهمنا في هذا المجال أن نشير إلى أنه قد تم العثور في دار المحفوظات العثمانية التابعة لرئاسة الوزراء في استانبول على أربعة دفاتر تحرير، أو تسجيل للأراضي خاصة بتسجيل أوقاف وأملاك فلسطين. وقام مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول، التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي، بنشر أهم هذه الدفاتر الأربع عام ١٩٨٢م، وهو دفتر تحرير الطابو رقم ٥٢٢ كباكورة لأعماله، هذا الدفتر يشمل معلومات بالغة الأهمية حول أملاك وأوقاف المسلمين وخاصة في عهد الأيوبيين والمماليك وبداية عهد العثمانيين، كما أنه يشمل معلومات عن أول وقف إسلامي في هذه الأراضي العزيزة ألا وهو ما أعطاه الرسول ﷺ إلى الصحابي الجليل تميم الداري رضي الله عنه وإلى ذريته من بعده.



كذلك يلقي هذا الدفتر الضوء على الكثير من الحقائق الأساسية الخاصة، بحقوق العرب والمسلمين في تلك البلاد، ويقدم شواهد لا تنكر على أملاكهم وأوقافهم، ويسوق الأدلة القاطعة على الجانب الإنساني لنظام الأوقاف الإسلامي في رعايته لجميع طبقات المجتمع، وللناس جميعاً بغض النظر عن أجناسهم أو ألوانهم أو أديانهم، فتجد أن خدمات الأوقاف والمؤسسات الخيرية الإسلامية كان يستفيد منها اليهود والنصارى، وفي عهود لاحقة نجد أن نظام الوقف الإسلامي قد توسع في خدماته الخيرية حتى شمل الحيوانات والطيور أيضاً.

والحق يقال إن هذا الدفتر قد فتح مجالاً خصباً وجديداً في مجال الدراسات الخاصة بفلسطين بوجه عام ومدينة بيت المقدس بوجه خاص، إذ أن المصادر التقليدية لتاريخ فلسطين والقدس، وهي الكتب المطبوعة من قديمة وحديثة، عربية وأجنبية، لم تعد كافية للبحوث الحديثة. ولابد لاستكمال ما ورد فيها من العمل الأثري الميداني - وهو متعذر - في ظل الظروف الراهنة والبطش الإسرائيلي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لابد من فتح خزائن الوثائق القديمة، ونشرها سواء من السجلات والوثائق العثمانية، أو الوثائق المملوكية، أو الوثائق التي ما تزال محفوظة لدى بعض العائلات الفلسطينية.

وفي اعتقادنا أن الوثائق المنشورة في دفاتر الطابو الأربعة، ووثائق الحرم القدسي الشريف والتي تم الكشف عنها بين سنتي ١٩٧٤، ١٩٧٦م، وسجلات المحكمة الشرعية في القدس، والوثائق المحفوظة في أديرة القدس، وتحتوي على مادة تاريخية غنية، وأن الاستمرار في كشف النقاب عن الوثائق المخبوءة الكثيرة الأخرى من شأنه أن يقدم خدمة كبرى للقضية الفلسطينية، وتاريخ المدينة المقدسة وقضيتها، وللثقافة العربية الإسلامية بصورة عامة.

ملاحظات على دفاتر التحرير العثمانية:

أولاً: الخصائص اللغوية للدفاتر:

هذه الدفاتر دونت بلغة عربية ليست بالفصحى، وذلك لأن الكتاب الذين دونوها كانوا أحرص على تسجيل المعلومات منهم على سلامة اللغة، كما أن بعضهم لم يكن من أهالي البلاد، لذلك جاء تدوينهم لبعض الأماكن بصورة غير واضحة أو مغلوطة، فحذفوا «ال» المستخدمة للتعريف، واستعملوا بعض التعبيرات والاصطلاحات غير العربية من تركية وفارسية مثل: «غيراز» بمعنى ماعدا، و«درنزد» بمعنى في أو بمعنى لدى، و«در» بمعنى في، و«نام ديكر» بمعنى الاسم الآخر، و«نزد» بمعنى في أو بمعنى لدى، و«بروجه مقطوع» بمعنى بشكل محدد أو ثابت. كما أننا نلاحظ أن نصوص الوقفيات التي تم تدوينها في تلك الدفاتر قد تم نقلها من السجلات الشرعية المحلية، أو من نصوص ووثائق الوقف الأصلية.

ثانياً: المعلومات التي تحتويها الدفاتر

وهي العناصر الواردة في الوقفيات وتتضمن ما يلي:

١ - اسم الوقف أو الواقف.

٢ - شروط الوقف.

٣ - تاريخ تسجيل الوقف.

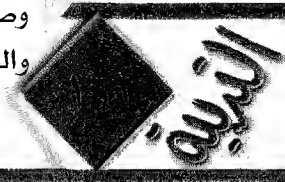
٤ - مصادر الوقف، أي ما يشتمل عليه الوقف من أرض زراعية، وبساتين، وغراس، ومطاحن، ومعاصر، ودكاكين، وخانات، ومساجد، وحمامات، وأسواق، ودور.

ويلاحظ في الدفتر انتساب الواقفين إلى عهود مختلفة وطبقات مختلفة. مثال ذلك الوقفية التي تمت في عهد الرسول ﷺ لتميم الداري الأنصاري وعلى ذريته من بعده. كما نلاحظ أن هناك العديد من الأوقاف الغنية بإيراداتها مثل تلك التي أسسها السلطان صلاح الدين الأيوبي (المتوفى سنة ٥٨٩/١١٩٣م) في القدس بعد استرجاعها من الصليبيين.

ومن الطريف أن بهذه الدفاتر وخصوصاً الدفتر ٥٢٢ العديد من الأوقاف بأسماء بعض الأنبياء، مثل موسى وإبراهيم ويحيى وذكرى عليهم السلام، ومن المؤكد أن هذه الأوقاف لم تقم من قبل هؤلاء الأنبياء، وإنما تم وقفها بعدهم بأحقاب، من قبل أهل الخير واليسار، لإنفاق ريعها على مقامات وأضرحة هؤلاء الأنبياء كما أن هناك العديد من الأوقاف التي خصص ريعها لعمارة الجوامع والمساجد والمدارس والزوايا والترب والأضرحة وما إلى ذلك دون ذكر اسم واقفيها.

ومن الملاحظ كذلك أن هناك العديد من الأوقاف على الذرية، وهي تتشابه من حيث تخصيص ريع الوقف على الجهات التي تتفق من أجلها بعد انقطاع ذرية الواقف ونشاهد أن معظمها يشترط الإنفاق على مصالح الحرمين الشريفين بمكة المكرمة والمدينة المنورة أولاً، ثم على المسجد الأقصى بالقدس الشريف، والحرم الإبراهيمي بالخليل، ثم يلي ذلك الانفاق على المساجد والمدارس والزوايا والربط، وما شابه ذلك من المؤسسات الخيرية مع الانفاق على القائمين على خدمة هذه المؤسسات.

وبالإضافة إلى ذلك النوع من الأوقاف على الذرية، كانت هناك أوقاف مخصصة لرعاية المرضى في بيمارستانات أي مستشفيات بلاد الشام بوجه عام، والقدس والرملة وصفد بوجه خاص. وكذلك لرعاية المساجين، وافتكاك الأسرى، ومساعدة طلبة العلم، والصوفية، والفقراء والمساكين، والأيتام، والمجاورين بالحرمين الشريفين.



دفاتر تحرير الطابور:

١ - دفتر تحرير الطابور رقم ٣٤٢

يحتوي هذا الدفتر الذي خصص لأوقاف وأملاك القدس فقط على ٣٣ صفحة، وردت فيها أسماء الوقفيات والأملاك فقط دون ذكر شروط الوقفيات كما في الدفتر ٦٠٢ أيضاً، ولكنه يمتاز بذكر كافة مصادر الوقفيات وتواريخها. ويمكن القول بأن هذا الدفتر قد تم تدوينه سنة ٩٧٠هـ / ١٥٦٢م، ويضم هذا الدفتر ٩٥ وقفية، و٥٤ ملكاً خاصاً بالقدس^(١).

٢ - دفتر تحرير الطابور رقم ٣١٢

يتكون هذا الدفتر من ١٣٣ صفحة، فيها حصر لأوقاف وأملاك كل من صفد، ونابلس، وغزة، والرملة. ويتميز هذا الدفتر عن أمثاله بحسن الترتيب وجودة الخط، مع قلة الأخطاء بالنسبة لدفاتر الأخرى. تلك الأوقاف عبارة عن ٢٩٠ وقفية، و٢١٥ ملكاً^(٢) وغير معروف على وجه التحديد التاريخ الذي تم فيه تدوين هذا الدفتر.

٣ - دفتر تحرير الطابور رقم ٦٠٢

يتكون هذا الدفتر من ٤٩٥ صفحة. وحيث أن أحدث وقفية في هذا الدفتر تحمل تاريخ سنة ٩٤٠هـ / ١٥٣٣م فيمكن القول بأن هذا الدفتر قد تم تدوينه في هذا التاريخ تقريباً، وبذلك يكون أقدم الدفاتر التي تم العثور عليها. ويضم ٢٤٣ وقفاً، و٣٤٩ ملكاً، ومما يلفت النظر في هذا الدفتر أنه لم يورد شروط الوقفيات حيث اكتفى بذكر أسمائها فقط^(٣)، وتشتمل الصفحات من ١ - ٤٢٠ على أوقاف وأملاك الشام (سوريا)، بينما جاء ذكر أوقاف فلسطين في الصفحات من ٤٢٥ - ٤٦١ وهي أوقاف القدس، وغزة، وصفد، ونابلس، أما أملاك فلسطين فهي تشمل الصفحات من ٤٦٣ - ٤٩٥^(٤). أما أقدم وقفية فيه فهي وقفية لصالح الدين الأيوبي تاريخها سنة ٥٨٤هـ، بينما معظم الوقفيات في هذا الدفتر موضوع البحث الذي قدمه الدكتور محمد إيشري عن أوقاف فلسطين في دفاتر التحرير، في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان ١٩٨٠^(٥). ومن الطريف أن الصفحة رقم ٤٥٨ بها وقفيتان مسيحيتان الأولى باسم ميخائيل بن أندراس بن قسطنطين، لم يذكر اسم الجهة التي وقف عليها. أما الثانية فهي خاصة بفقراء ومساكين النصارى الذين يقيمون في القدس أو يأتون إليها^(٦).

٤ - دفتر تحرير الطابور رقم ٥٢٢

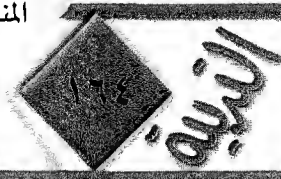
هذا الدفتر يتكون من ٧١ صفحة منها ١١ صفحة خالية تماماً، وهو يختص كلياً بأوقاف وأملاك فلسطين، وقد شغلت أوقاف وأملاك القدس الصفحات من ١٤ - ٣١، بينما أوقاف وأملاك صفد فقد جاءت في الصفحات من ٤٠ - ٥٢، وأوقاف وأملاك نابلس في الصفحات من ٦٤ - ٦٨، وأوقاف وأملاك عجلون في الصفحة ٧١. وفي هذا الدفتر ٢٣٥ وثيقة وقف من بينها أوقاف السلطان صلاح الدين الأيوبي، والسلطان الأشرف قايتباي في القدس. والدفتر مؤرخ في سنة ٩٨٠هـ، وهو أكثر الدفاتر تنظيماً بالنسبة لغيره من الدفاتر، كما أن عدد الأملاك به قد بلغ ٩٢ ملكاً^(٧).

ومما يلفت النظر أن بعض سلاطين المماليك كان يخصص قسماً كبيراً من ريع أوقافه في فلسطين لإنفاقها على أوقافه الأخرى في مصر، مثال ذلك ما وقفه السلطان أبو سعيد قانصوه من قرى ومزارع في غزة لإنفاق ريعها على تربته ومسجده في مصر، وكذلك ما وقفه السلطان برفوق من بعض قرى فلسطين للإنفاق على مدرسته في مصر^(٨).

وفي العصر العثماني نلاحظ من خلال ما جاء في الدفتر ٥٢٢ أن الأوقاف المخصصة للحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وأوقاف القدس الشريف والخليل معفاة من الضرائب المختلفة وهي التي عرفت باسم «العوارض الديوانية» و«التكاليف العرفية» و«الأعشار» وتمتعت بهذا الإعفاء الأوقاف المخصصة لسائر الجوامع والمساجد والأضرحة والتكايا والمدارس والأربطة والخانقاوات، والبيمارستانات، ومنشآت مياه الشرب وغيرها^(٩). مثال ذلك ماجاء في الوقفية رقم ١٦، وفيها أوقف شخص يدعى رمضان بن إلياس أرضاً تعرف ببستان العزاب على تربته، وسبيل ماء بها، وعلى قراءة القرآن العظيم في الجامع العمري الكبير بالقدس^(١٠). والوقف الخاص، بزاوية الشيخ سليم وهو عبارة عن قرية بيت لاهية التابعة لغزة^(١١).

الأغراض المختلفة لأوقاف الحرمين:

يأتي في مقدمة الأغراض التي توضح الارتباط الشديد بين مدينة بيت المقدس والحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة كمقصد للحجاج بعد أداء مناسكهم، ولأن القدس أولى القبلتين، وباعتبار ما فيها من منشآت تجارية أقيمت لخدمة التجارة والتجار، وللإنفاق على أوجه البر والخير في مكة المكرمة والمدينة المنورة، من هذه المنشآت نذكر «خان القطانين» أو خان الملك المؤيد شهاب الدين أحمد



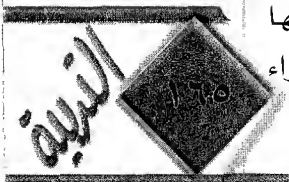
بن الملك الأشرف أبي النصر إينال، ففي فترة توليه منصب السلطة سنة ٨٦٥هـ لمدة أربعة أشهر وتسعة أيام بعد أبيه، أوقف هذا الخان على الحرمين الشريفين في الحجاز، وكان هذا الخان يشمل على بوايك ومخازن سفلية وعلوية، وحوانيت بسوق باب القطانين نسبة إلى أحد أبواب المسجد الأقصى الشريف، والذي أقيم في أكثر المناطق أهمية في بيت المقدس وقلب المدينة التجاري في العصور الوسطى، والتي تعد من أبرز الآثار الإسلامية المملوكية في القدس، والتي يقصدها دارسو الفن الإسلامي، هذا الخان كان يتم تأجيريه وتم وقف ريعه على مصالح الحرمين الشريفين في الحجاز^(١٢).

ومنها وقف باسم شخص يدعى شمس الدين المزلق على أولاده وذريته وبعد الانقراض على مطبخ الدشيشة، وهي نوع من البرغل، كان يطبخ ويوزع على الفقراء، والمحاييس، ولمرضى الجذام، والذي كان غالباً ما ينتج عنه بعض العاهات مثل بتر اليد أو الأصابع، وتاريخ هذه الوقفية سنة ٨٩٧هـ^(١٣).

ومن أوقاف الحرمين الشريفين ما كان يخصص لحماية حجاج بيت الله من فلسطين في طريقهم إلى الحجاز وأثناء عودتهم، وخصوصاً في مواسم الصيف ولوقايتهم من شدة الحر، وهو ما عرف باسم «السحابة» مثال ذلك وقف شمس الدين بن بدر الدين بن المزلق على السحابة بطريقة الحجاز، تاريخ هذا الوقف سنة ٨٩٠هـ، هذا الوقف عبارة عن ريع نصف مزرعة سمونية التابعة لطبرية، وريع نصف قرية كفر عنان، وريع نصف قرية كفر ياسيف التابعة لعكا^(١٤).

ومنها الأوقاف المخصصة لشراء الزيت الذي تضاء به فتاديل الحرم النبوي الشريف في المدينة المنورة، مثل وقف شمس الدين به المزلق على زيت المدينة المنورة في كل سنة ألفي درهم مع أجرة حمله إلى المدينة الشريفة، وما فضل على أولاده وذريته ومن بعدهم على السحابة بطريق الحجاز، وتاريخ هذه الوقفية في سنة ٨٦٩هـ. هذا الوقف عبارة عن مزرعة بتمامها في صيدا تسمى مزرعة الرشيد، وقرية العقبة المجاورة لها، ومزرعة النورية المجاورة لها، ثم خمسة قراريط في قرية الشجرة التابعة لطبرية وكذلك قرية قصير بطبرية أيضاً^(١٥).

ومنها الأوقاف المخصصة لفقراء الحرمين الشريفين وتوزع عليهم على شكل كسوة مثال ذلك وقف شهاب الدين أحمد بن محمود العدوي، الذي شرط «أن يصرف العشر للناظر على الوقف، وأن يصرف الناظر خمسين درهما للأسراء بصيدا. وأن يصرف في كل سنة مائة وعشرون درهما لرجلين يقرءان الفاتحة في كل ليلة ويهديان ثوابها للواقف والمسلمين. ويصرف مما فضل منه في ثمن قمصان ويجهز ذلك لفقراء



الحرمين الشريفين كل سنة». وتاريخ الوقفية سنة ٨٥١هـ، والوقف عبارة عن ٣ قراريط في مزرعة دير قانون التابعة لتبنين^(١٦).

ومنها وقفية علاء الدين بن محمد بن محمود الدوناري وأخيه محمود على نفسيهما ثم على أولادهما ونسلهما وعقبهما الثلثان من ريع قرية أبل القمح التابعة لتبنين، وقرية ديشون، وقرية فارا، ومزرعة بقرية علما، «بينما الثلث يكون وقفا على الفقراء المجاورين بالحرمين الشريفين مكة المشرفة ومدينة يثرب شرفها الله تعالى، وتاريخ هذه الوقفية هو سنة ٨٧٠هـ»^(١٧).

ووقفية الناصري محمد بن محمود بن ديونداي وأشقاؤه الزيني عبد القادر والجمالي محمود وعلي. «على أنفسهم وذريتهم وعقبهم ونسلهم وبعد الانقراض يكون النصف للفقراء والمساكين في الحرمين الشريفين». هذه الوقفية عبارة عن قرية بارون، وقرية الملاحة بصفد، ومزرعة بطيخة في تبنين، وتاريخها هو سنة ٨٥٤هـ^(١٨).

ومن هذه الأوقاف ما كان يخصص للحرم النبوي الشريف في المدينة المنورة فقط، مثال ذلك ما جاء في وقفية زين الدين بن رمضان الناصري محمد بن القلعي، على نفسه في حياته، ثم من بعده لأولاده وذريته وبعد الانقراض يتم تخصيص نصف ريع قرية نبرتين التابعة لصفد، على أن يشتري به ثياب خام قطن تفرق على المجاورين بالحرم الشريف النبوي تاريخ الوقفية سنة ٨٣٠هـ^(١٩).

ومنها وقف زين الدين محمد بن جمال الدين محمود مندو على نفسه ثم من بعده على أولاده وذريته. وبعد الانقراض على الحرم الشريف النبوي، تاريخ الوقف سنة ٨٤٨هـ، والوقف عبارة عن قرية طلوسية التابعة لشقيف، وقرية طرزينا التابعة لتبنين، ومزرعة بيت أوج تابعة لتبنين، ومزرعة تسمى مركب، وقرية دير السريان التابعة لشقيف، ومزرعة شعيب التابعة لطبرية، ومزرعة هوشا التابعة لعكا^(٢٠).

ووقف أبي بكر شهاب الدين أحمد وزين الدين عبد اللطيف أولاد زين الدين حامد «على أولادها وذريتهما وبعد الانقراض يكون ثلث ريع حاصل الوقف على حرم نبينا ﷺ»، وتاريخ الوقفية هو سنة ٨٧٠هـ، والوقف عبارة عن قرية عموقة، ومزرعة المشيرفة، ومزرعة عين الوحوش، وثمان قرية عكبر، وثلثة أرباع قرية ياقوق، وربع قرية لوسيه وهي تابعة لشقيف، وثمان قرية ميثلون^(٢١).

ومنها وقف إبراهيم الدهداري، على نفسه وذريته ونسله وعقبه، وبعد الانقراض على الحرم النبوي، وتاريخ الوقف هو سنة ٨٦٩هـ، وهو عبارة عن غراس زيتون في ظاهر الرملة، وقطعة أرض تعرف بكرم إبراهيم الدونداري^(٢٢).



ومن أوقاف الحرم النبوي الشريف أيضاً ما كان مشتركاً مع جهات أخرى مثال ذلك: وقف علي بن الأمير الأبوغا على نفسه مدة حياته ثم من بعده على شقيقته ست الملوك وعلى زوجته سنية وعلى من سيحدث له من الأولاد ثم على إبراهيم وأولاد أولادهم ونسلهم وعقبهم، فإذا انقضوا كان وقفاً على مصالح الحرم الشريف النبوي على ساكنه أفضل الصلاة والسلام، وعلى حرم سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام. وتاريخ الوقف هو ١٠ ذو القعدة سنة ٨٦٧هـ، وتاريخ الشراء لمصادر الوقف من بيت المال زمن السلطان إبنال في سنة ٨٦٣هـ. هذا الوقف عبارة عن ٤ قراريط من قرية ديماس التابعة للرملة، و٢ قيراط من قرية برداغة التابعة لغزة، وقيراط من قرية بيت دراس الكبرى، و٣ قراريط من قرية دمر النجد شمال غزة و٣ قراريط من قرية هربيا التابعة لغزة، وقيراط وثمان قيراط من قرية برير التابعة لغزة، وقيراط وسبعة أثمان القيراط من قرية قمصا التابعة لغزة، وقيراط من قرية عودة التابعة لغزة، وخمسة أثمان القيراط من قرية جميل المعاد التابعة لغزة، ونصف قطعة أرض تعرف بأبي المعالي في غزة، وثمانية قراريط من قرية بيت دارس الصغرى التابعة لغزة، وثمانية قراريط من قرية طيرة التابعة للرملة، وثلاثة قراريط من مزرعة أرفاعي بغزة، وقيراط من قرية جلدية التابعة لغزة، وثلاثة أثمان قرية لحاوي التابعة لغزة، وقيراط من مزرعة حبيرا التابعة لغزة، ونصف قطعة أرض عريض التابعة لغزة، وقطعتين أرض تعرفان بأبيار نفيسة بالخضر تابعة لغزة^(٢٣).

ومن هذا النوع من الأوقاف هناك وقف محمد بن مقبل الرومي على جهات البر والصدقة، منها الثلث على خدام الحجرة الشريفة النبوية، والثلث على طلبية العلم الواردين بالجامع الأزهر، والثلاث على طلبية العلم الغربا الواردين إلى رواق ابن مقبل في غزة، وتاريخ الوقفية هو سنة ٩١٦هـ. ووقف محمد بن مقبل الرومي على جهات البر والصدقة . منها لخدام الحجرة الشريفة النبوية في كل سنة أربعمائة عثمانى.. والوقف عبارة عن قرية بيت حانون التابعة لغزة، وتاريخ الوقف سنة ٨٠٧هـ^(٢٤).

وهناك نوع آخر من الأوقاف كان مشتركاً بين الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة وأماكن أخرى، مثال ذلك وقف الناصري محمد بن محمد المشهور بابن أبي والي على نفسه ثم من بعده لأولاده وأنسالهم وأعقابهم، وبعد الانقراض النصف على الحرمين الشريفين، والنصف الآخر على حرم القدس الشريف وحرم سيدنا الجليل، وتاريخ الوقفية. هو سنة ٨٨٠هـ وتم تسجيلها في الدفتر سنة ٩٢١هـ. والوقف عبارة عن ١٣ قيراطاً من قرية كفر نعمة التابعة لجبل القدس الشريف^(٢٥).



ومنها وقف محب الدين محمد بن علاء الدين علي بن الوصي الموقع، على نفسه ثم على أولاده وأنساله وأعقابيه. وبعد الانقراض على الحرمين الشريفين وعلى حرم حضرة خليل الرحمن وعلى حرم القدس الشريف بالسوية وتاريخ الوقفية المسطور في السجل هو سنة ٩٤٢هـ، والوقف عبارة عن نصف قرية بيت ساحور الوادي التابعة للقدس، وقرية بيت ماسين التابعة للقدس الشريف^(٢٦).

كما جاء في دفتر الطابور رقم ٥٢٢ في حديثه عن أوقاف صفد على الحرمين الشريفين وقفية مقبل الحسامي والتي جاء ذكرها في الدفتر رقم ٢١٢ الصفحات ٦، ٧ والتي يرجع تاريخها إلى سنة ٨٢٦هـ. وفيها أوقف مقبل المذكور قرية جب يوسف مع مزرعة تسمى مزرعة حنا بصفد، أوقف «النصف والربع على نفسه وذريته وعقبه وإذا انقرضوا كان وقفا على الحرمين الشريفين حرم مكة وحرم المدينة شرفهما الله. والربع وقف على مصالح المسجد المعروف بجب يوسف وعلى الفقراء بهما، والإمام والخادم»^(٢٧).

كذلك يذكر الدفتر في حديثه عن الوقفية رقم ٥٥ من أوقاف غزة أن شخصاً يدعى تمسك الحسني أوقف على تربته ومسجده ومكتبه «كتّابه» في محلة قبيبات طاحون دار الرحا المعروف بالواطي والجدار الراكنة على نهر العوجا تابع الرملة، وشروط الواقف «أن يكون في تربته المذكورة والمسجد والتكية إماماً ومؤذناً وبواباً وقيماً وفراشاً ومحدثاً يقرأ حديث النبي ﷺ، وأن يكون خمسة عشر مقراً يقرؤون القرآن العظيم، وأن يكون عشر أيتام يتعلمون القرآن العظيم بعدما يصرف للمذكورين ما هو معين في كتاب الواقف بحرم مكة والمدينة المنورة ثلاثة آلاف درهما وما فضل بعد ذلك يكون لفرش التربة وتزويرها وسائر لوازمها حسبما شرط الواقف» وتاريخ الوقفية في سنة ٩٩٩هـ^(٢٨).

وفي إحدى الوقفيات الخاصة بصفد هناك وقفية باسم شمس الدين محمد أبو اليسر بن شهاب الدين المعروف بابن الدرويش، هذه الوقفية مدونة أيضاً في دفتر الطابور رقم ٣١٢ في الصفحة رقم ٩، جاء بها أن الشخص المذكور «أوقف معصرة تعرف بالعرصية في حارة السوق الكبير، وطاحون يعرف بالصوابية، ومعصرة للزيت الشيرج في سوق القرى، وست دكاكين في السوق الكبير، وقبو في حارة الصوابين بصيدا، وقرية تعرف بمغارة نبي الله يعقوب عليه السلام، وغراس البستان الكائن في وادي الباي بصفد كذلك، على نفسه مدة حياته ثم من بعده لأولاده وذريته. وإذا انقرضوا على أخيه محمد أبي الفضل وأخته خديجة وعلى أولادهم وذريتهم وإذا انقرضوا كان النصف وقفاً على ثلاث أنفار من حفاظ القرآن، يقرؤون في كل يوم اثنين



وخميس جزءاً من القرآن العظيم. والنصف الثاني على الحرم الشريف النبوي»، وتاريخ الوقفية سنة ٩٢٧هـ^(٢٩).

وينبغي الإشارة إلى أن المعاصرين في ذلك الزمان استخدموا عبارة «الحرمين الشريفين» مرة للدلالة على القدس والخليل، ومرة للدلالة على مكة المكرمة والمدينة المنورة، مع التفريق بينهما بشكل واضح لا يدع مجالاً للالتباس، مثال ذلك ما جاء في وقفية الملك المؤيد شهاب الدين أحمد بن الملك الأشرف أبي النصر إينال، ففي فترة توليه منصب السلطنة سنة ٨٦٥هـ لمدة أربعة أشهر وتسعة أيام بعد أبيه، أوقف خان القطنين «على الحرمين الشريفين في الحجاز»^(٣٠).

مثال آخر هو «وقف شمس الدين محمد بن الكتاني يعرف بابن أبي عباس»، هذا الوقف عبارة عن دار في عقبة الست بالقدس الشريف، وغراس قطعة أرض حكر، وخان يعرف بالفندق في خط سوق داود مع عدة دكاكين بالقدس الشريف، وقف هذه العقارات على ذريته، وإذا انقرضوا على مصالح الحرمين الشريفين و خليل الرحمن»، وتاريخ الوقفية هو سنة ٨٩٧هـ^(٣١) وواضح من النص أن إضافة «خليل الرحمن» أن المقصود بالحرمين الشريفين مكة المكرمة والمدينة المنورة.

ومنها وقف فاطمة بنت محمد بن علي الكمش على أولاد ابنها أحمد بن موسى الأنصاري «ومن بعدهم لأولادهم وذريتهم وبعد انقراضهم إلى الحرمين الشريفين القدس الشريف وحرم سيدنا خليل (هكذا) الرحمن»، وتاريخ الوقفية سنة ٨٦٩هـ، والوقف عبارة عن ١٢ قيراطاً من قرية سيتان التابعة للرملة. وقد بلغ ريع هذه الحصة في ذلك العام ٨٢٩ درهما^(٣٢).

أما إذا كان الوقف مخصصاً لأحد الحرمين الشريفين في الحجاز فكان يتم النص على ذلك في الوقفية، مثال ذلك وقف زين الدين عبد الوهاب بن غرس الدين خليل من بني قسيم الشهير بابن الأخرم، وتاريخ الوقف هو سنة ٨٣٢هـ، «على نفسه ثم من بعده على أولاده وذريته وبعد الانقراض على مصالح الحرم الشريف النبوي ﷺ». وتتوعت مصادر هذا الوقف وبلغت ٢١ مصدراً ما بين طواحين، ودكاكين، وبيوت، وغراس في نابلس^(٣٣) ووقف الشيخ علي بن حسن سادوق «على نفسه ومن بعده لأولاده الذكور دون الإناث وبعد الانقراض على الحرم الشريف النبوي على ساكنه أفضل الصلاة» وتاريخ الوقف سنة ٩٤٨هـ، والوقف عبارة عن حصة ٤ قرايط في طاحون يسمى طاحون ميلونية بمزرعة النويجره على نهر وادي الريصة، في صيدا^(٣٤) وهناك وقفية باسم «جمال الدين بن شمس الدين السبتي على ولده شمس الدين محمد وبعد الانقراض على مصالح الحرم الشريف النبوي»، وتاريخ الوقفية هو سنة ٩٠٨هـ، والوقفية عبارة عن ريع مزرعتين، هما مزرعة مجدل، ومزرعة أخرى تسمى مزرعة سيدي بصفد^(٣٥).



وإحقاقاً للحق يجب أن نذكر أن هناك بعض الوثائق ولكنها قليلة قد جاء فيها ذكر الحرمين الشريفين دون الإشارة إلى أيهما، هل هما مكة المكرمة والمدينة المنورة، أم هما القدس الشريف والخليل. مثال ذلك وقف الشهابي أحمد بن علي الحاجب «على نفسه وذريته وبعد الانقراض على مصالح الحرمين الشريفين»، وقد جاء ذكر هذه الوثيقة في الدفتر ٣١٢ أيضاً، وتاريخ الوقفية هو سنة ٨٩٣هـ، والوقف عبارة عن عدة عقارات في غزة ما بين دكاكين، وطاحون، وحصص في قرى غزة، وغراس كروم^(٣٦).

ووقف محمد بن عبد الرحمن ناظر الحبس على نفسه أيام حياته ثم من بعده على وجوه بر وصدقات، وما فضل على أولاده وذريته، وبعد الانقراض على الحرمين الشريفين، وتاريخ الوقفية هو سنة ٨٩٤هـ، والوقف عبارة عن قطعة أرض في قرية عرار التابعة لغزة، و٣ دكاكين في سوق الحدادين، وفرن بالقرب من سوق الحدادين، وأشجار كروم في غزة^(٣٧).

ووقف غرس الدين خليل بن أبي بكر بن مشاق. تاريخ الوقفية هو سنة ٨٦١، «وقف علي الحرمين»، والوقف عبارة عن ٨ قراريط في قرية تسمى بيت ليد في الجبل الشامي بصيدا^(٣٨).

«وقف الشرفي يونس بن برهان الدين على نفسه، وعلى أخويه شهاب الدين وزين الدين وعلى أولادهم وأولاد أولادهم وذريتهم وعقبهم، فإذا انقرضوا للحرمين الشريفين» وتاريخ الوقفية هو سنة ٩١٩هـ، والوقف عبارة عن كامل قرية الرضية، ونصف قرية منصورة، ونصف قرية قانا تابع طبرية، ونصف مزرعة سيانا التحنا تابع طبرية، وسدس مزرعة وقاسية، وخمس قراريط من مزرعة فارا، و٢ قيراط من قرية تليل، و٩ قراريط من قرية زراية تابع تبين^(٣٩).

ووقف علاء الدين شمس الدين العلماءوي «على أولاده وبعد الانقراض على فقراء الحرمين الشريفين» وتاريخ الوقفية في سنة ٨٧٩هـ، هذا الوقف عبارة عن ٤ قراريط من قرية صلحة تابعة لتبين، و٦ قراريط من مجدل عليا تابع عكا، و٦ قراريط في مزرعة في عكا تسمى مزرعة هيملس، و٣ قراريط في قرية عكبره^(٤٠).

ووقف شمس الدين محمد بن جمال الدين يوسف المعروف بابن الزريق الغزالي على ذريته ونسله وعقبه، فإذا انقرضوا عاد وقفاً على الحرمين الشريفين، وتاريخ الوقفية هو سنة ٧٨٠هـ^(٤١) ومن أوقاف صفد هناك وثيقة وقف مدونة في سجل الطابور رقم ٥٢٢ باسم «أحمد ابن محمد بن أبو عمارة على أولاده وبعد الانقراض على الحرمين الشريفين» وتاريخ الوقفية هو سنة ٨٤٦هـ^(٤٢) ووقفية بدر الدين بن جمال



الدين فقيه، على نفسه مدة حياته ثم من بعده على أولاده وذريته وبعد الانقراض على الحرمين الشريفين، تاريخ الوقفية هو سنة ٨٢٤هـ، والوقفية عبارة عن قرية تسمى قرية دير الوقاسية والتي وصل ريعها في تلك السنة إلى ٨٧٢٠ درهما، وجاء ذكرها أيضاً في الدفتر رقم ٦/٣١٢. ثم في سنة ٨٦٠هـ قام نفس الشخص بوقف قريتين بصفد إحداهما تسمى العلمانية والأخرى تسمى قرية ديشون، «على نفسه مدة حياته ثم من بعده على أولاده وذريته وبعد الانقراض على الحرمين الشريفين»^(٤٣).

ومع أن عبارة «الحرمين الشريفين» الوارد ذكرها في هذه الوثائق تحتل الحرمين الشريفين في الحجاز، والحرمين الشريفين في القدس والخليل، إلا أننا نرجح أن المقصود بهذه العبارة مكة المكرمة والمدينة المنورة، ذلك لأنه من الأغراض التي زاد الإيقاف عليها في العصر المملوكي الوقف على الحرمين الشريفين بمكة والمدينة، ولاسيما لكسوة الكعبة، وكسوة الحجرة النبوية والمنبر النبوي الشريف وكما هو واضح في الوثائق المملوكية المختلفة سواء منها ما يخص مصر أم بلاد الشام^(٤٤).

مصارف أموال الأوقاف:

أما عن أوجه الصرف التي كان يصرف فيها ريع تلك الأوقاف فيذكر لنا ابن ظهير في كتابه «روضة الأديب ونزهة الأريب» أن أموال الأوقاف الموقوفة على وجوه البر المطلق تصرف على ما يلي حسب الترتيب: الأشراف وهم المتصلون بنسب الرسول ﷺ، الفقهاء، الصوفية، الفقراء، القراء، الأسرى، ابن السبيل والمريض، المجنون وتجهيز الموتى، أسوار الثغور، وقناطر الطرقات، عمارة المساجد، مصالح المدارس، الرباطات والخوانق، أي بيوت الصوفية، المشاهد، ومواطن العبادة^(٤٥). كما أنه من الواضح أن ريع تلك الأوقاف كان يرسل إلى الحرمين الشريفين بالحجاز أو أحدهما في مواسم العمرة والحج، إما على شكل مبالغ يتم وضعها في «الصرر» جمع صرة، أو يتم شراء بعض ما يحتاج إليه أهل الحرمين من زبيب أو شعير أو قمح أو كساوي تفرق فيهم. فقد جاء في وثيقة الشهابي أحمد بن زين الدين صديق بن مراد والمؤرخة في سنة ٨٦٨هـ أن «يكون محصول الوقف أثلاثاً: الثلثان يشتري به قماش خام يخاط ويرسل قمصان إلى الحجاز ويفرق على الفقراء بالحرمين الشريفين...»، هذه الوقفية عبارة عن عشرة قراريط ونصف من مزرعة قمصيا التابعة للشقيف بصيدا^(٤٦) وفي بعض الحالات نسمع أن إمام الروضة الشريفة النبوية كان يحضر لاستلام ريع بعض الأوقاف المحبوسة على مصالح الحرم النبوي الشريف بالمدينة المنورة، قد جاء في الوثيقة رقم ٢٢ من وثائق الحرم القدسي الشريف والمؤرخة في شهر ذي القعدة سنة ٧٠٧هـ أن الشيخ عمر بن أحمد بن الخضر الشافعي إمام الروضة الشريفة النبوية قد حضر إلى

القدس وتسلم مبلغ خمسة الاف درهم هي ريع قرية القصور التابعة للقدس، وكانت موقوفة على جامكية خطيب المسجد النبوي والمؤذنين به ومصالح السقاية المنصورية بالمدينة المنورة، وكتب على نفسه إيصالا باستلام المبلغ المذكور^(٤٧). كذلك جاء في الوثيقة رقم ٣٠ من وثائق الحرم القدسي الشريف والمؤرخة في ١٩ ذي الحجة سنة ٧٩٥هـ أن جماعة من أهل قرية القصور السابق ذكرها «والجارية في أوقاف النبي ﷺ» قد توجهوا إلى مدينة حسبان في الأردن «ومعهم مالهم إلى الجهة المذكورة ليبتاعوا به زيبيا وحب رمان وغير ذلك» وواضح من النص أنه كان يتم تخصيص جزء من الريع لشراء هذه الأشياء وتوصيلها إلى المدينة المنورة حيث يتم توزيعها هناك، لأن الوثيقة تتحدث عن اعتداء بعض أهالي أريحا عليهم بأسلحتهم وأخذ ما معهم^(٤٨).

هوامش البحث

- (١) منظمة المؤتمر الإسلامي: أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين، تحقيق وتقديم محمد إبحرلي، محمد داود التميمي، استانبول، ١٩٨٢م، ص ن من المقدمة.
- (٢) المصدر السابق نفسه، ص ل؛ د. د. العسلي (كامل جميل): وثائق مقدسية تاريخية، عمان، ١٩٨٣م المجلد الأول، ص ٣٢.
- (٣) منظمة المؤتمر الإسلامي: أوقاف وأملاك المسلمين، ص ل.
- (٤) د. العسلي: نفسه، ج ١، ص ٣٢، ٣٣.
- (٥) المرجع السابق: ج ١، ص ٣٣.
- (٦) منظمة المؤتمر الإسلامي: نفسه، ص ع.
- (٧) المرجع السابق نفسه، ج ١، ص ٣٢؛ منظمة المؤتمر الإسلامي، نفسه، ص ل.
- (٨) منظمة المؤتمر الإسلامي: نفسه، ص ع، حاشية ٢٨.
- (٩) المصدر السابق: نفسه، ص ف، ص.
- (١٠) المصدر نفسه، ص ٨.
- (١١) المصدر نفسه، ص ٩.
- (١٢) د. العسلي: نفسه، ج ١، ص ٧٤ - ٧٧.

(١٣) منظمة المؤتمر الإسلامي: نفسه، ص ٦٧.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٦٧.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٦٩.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٦٨.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٦٤.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٦٢.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٦٢.

(٢٠) المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

(٢١) المصدر نفسه ، ص ٦١.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ١٤.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٥.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٣.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٤٢.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٢٣.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٦٥.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ١٧.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٦٧.

(٣٠) د. العسلي «كامل جميل»: من آثارنا في بيت المقدس، عمان، ١٩٨٢م، ص ٧٤ - ٧٧.

(٣١) منظمة المؤتمر الإسلامي : نفسه، ص ٤٩.

(٣٢) المصدر السابق: نفسه، ص ٤٢.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٨٥.

(٣٤) المصدر نفسه، ص ٦٨.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ١٣.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ١٥.

(٣٧) المصدر نفسه، ص ١٥.



(٣٨) المصدر نفسه، ص ١٣.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ٥٩.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٦٠.

(٤١) المصدر نفسه، ص ٥٩.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ٦٦.

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٦٥.

(٤٤) د. محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، دار النهضة العربية بالقاهرة، ١٩٨٠م.

(٤٥) ابن ظهير: روضة الأديب، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، القاهرة ١٩٧١، من ص ١٠٤١ - ١٠٩٥.

(٤٦) منظمة المؤتمر الإسلامي: نفسه، ص ٦٠.

(٤٧) د. العسلي: نفسه، ج١، ص ٢٤١ - ٢٤٢.

(٤٨) المصدر: نفسه، ج٢، ص ١٣٢ - ١٣٤.

